مبارك الدريبي

شارع ناصية البحر



رواية

البوكيلي للطباعة
BOUKILI Impression

شارع ناصية البحر

الطبعة الأولى
1997

رقم الإيداع القانوني
1997 / 277
ISBN 9981 45 023 5 ردمك

البوكيلي للطباعة والنشر والتوزيع
43 زنقة محمد عبده القنيطرة
هاتف 00 99 37 / 37 99 37 فاكس 35 99 37



1996 - 1939

ولد مبــارك الدريبي في الـقنيـطرة سـنة 1939 مـع بداية الويـلات التي أتت بهـا الحـرب العـالميـة الثـانيـة والتي أودت ضراوتها بحـشود هائلة من الفقراء والمـسحوقين. وفي كـوخ بئـيس تجـاوره المزابل وحــفــر الماء الراكـــد، وفي دروب ترابيـــة تشكلـت من أكـواخ في مثـل بؤس كوخـه قضى طفولته الأولى وصباه.

كلمــا يفـتـح الطفل عـينيـه لا يرى غيـر انصـراف الأهل والجيران إلى الكد والكدح والقهـر، بالليل كما بالنهار، من أجل الحصول على ما يسد الرمق، ويضمن البقاء، إلى الغد.

يـتدئُ مـشوار همـوم الكتابة والإبداع مع دخـول مبـارك إلى كُتّاب فقيه لحفظ القـرآن. يُصاب بالذهول وهو يسمع عن الله والعدل والمحبـة والرحمة. وحين يسيـر في الأزقة والدروب، لا يجد غيـر الفزع والفقر، ولا يرى غير سكان الحيّ المسحوقين. يصدمه بقوة الظلم البشع الصارخ في عـمامة الفـقيه، وطربوش الثري، وقـبعة الشـرطي، وخوذة الجندي.

تلك هي الدروس الأولى الـتي تعلّمـهـا مـبـارك. أمـا الدروس الموالية، فسيتلقاها في " مؤسـسة " كوّنت العديد من الرجال والكتاب هي سجن القنيطرة.

كان ذلك سنة 1954، والتهمة الموجهة لذلك الفتى النحيف ذي الخمسة عشر ربيعاً هي المشاركة في صفوف المقاومة المسلحة ضد المستعمر الفرنسي.

يندهش مبارك في محبسه وهو يقرأ للآخرين. يتأمل ويسرف في مساءلة الذات ومساءلة ما حوله. يكتشف بداخله نهماً يتزايد ولاشيء يوقفه للتواصل مع الغير. يأخذ القلم، ويبدأ في تسويد ورقات بكلام متدفق فيه بوح وإدانة، ومسربل على الدوام بالحزن الدفين الذي يملأ صدره. يعتصر ذاكرته الحبلى بالصور، بالأماكن والأشخاص، ويكتب، كما يتنفس.

يترك حيطان السجن، بعد سنتين، ليخرج إلى السجن الكبير الفسيح، لا يحمل غير قلم الألم كما سماه. ويشرع في الكتابة بجد، بلا توقف، متأرجحا كالفراشة الظامئة الحائرة بين القصة القصيرة والرواية. والكتابة عنده إنصات لذاته، لصوته الفارد النازع إلى الانعتاق من سلطان الغير. مثله لا ينبهر بنظريات القص المستوردة، ولا يقلد نمطاً ناجحاً، ولا يعتنق تقليعة غربية كانت أو شرقية؛ وهذا ما جعل المنابر الثقافية ترحّب بكتاباته منذ الستينات.

في عمره تعددت الفضاءات (القنيطرة - بني ملال - وادي زم) سعى فيها إلى رزق يضمن له حياة بسيطة، لكن ملآى بالتأمل والدهشة والمساءلات، مفاتيح كل إبداع حقيقي.

يشرئب بعنقه، ويمدّ ذراعيه عالياً ليفتح نوافذ على السماء والشمس، لكن أخطبوط الزيف يعتصره، يمتص دمه، يشل حركته، ويلقي به في نهاية المطاف في حفرة الموت الباردة .

لكن، متى أفلح الموت في إخراس الأصوات الصادقة ؟ !

محمد سعيد سوسان

سكت التلفون. بقي مشدوها المستر الهاشمي. المساء ينحدر على حفلة الشاطئ والبحر الهدير والدمدمة البشرية غطت شارع ناصية البحر والمشوار الطويل. كتم غضبه وخرج ليعطي أوامره للنادل زواق الغارق وسط صراخ الزبناء وطلباتهم. الشمس في الشاطئ تحرق الجلدة والبطون والمؤخرات. عاد المساء ليغطي الفيلات الأنيقة ومقهى مدموازيل سوزي القردة الشامبنزي ومقهى (كوبا كابانا) برداء ضبابي أصفر تدفعه النسمة. الفوانيس تطل على البحر البشري بعيون ناعسة.

الحواجز عند منعطف الطريق الذاهبة إلى الصخور والغدير. السيارات.. والسيارات والبنات.. الأجساد في لباس آدم وحواء في جنة حفلة البحر، تتدافع، تتراكب، تبحث عن نفسها. والريح تبكي، تصفق الرايات واللافتات بشعاراتها. الريح تثير الغبار، تمسح وجوده دواب الاستهلاك التي تعيش لحظة فرح ومرح حيواني. حفلة البحر، مرحبا بك، فتح عينيه واستعاد في قذفة واحدة أحداث المساء. نزل من الفراش. رمى الأغطية واتجه إلى المرحاض، فالمغسلة. باب الكشك مفتوح تلعب به الريح. الظلمة مكدسة بزوايا الكشك المرقم برأس الدب الأسود. السياج يهتز. خرج مرسي من المغسلة، يمشط شعره. رمى المشط فوق أكداس الكتب والمجلات. الفراش مبعثر. مائدة صغيرة عليها بقايا طعام وزجاجات فارغة. فتح النافذة مرسي وأطل برأسه. شارع ناصية البحر يغلي بالقمل البشري. أدخل رجليه في نعل من جلد (1) الماعز وأحس بنعومة شعر هذا الحيوان الذي قتل

---

1 ـ أنجيل لوقا

ليلبس هو جلده. همس مرسي لنفسه : (ماذا نعطي للطبيـعة الأم) ؟؟.. هي التي تعـطينا وتطعمنا. نحن نستهلك، نخنق المجاري ونعقد الحياة البسيطة) لبس سـروال الفلانيل. ربط الحـزام الجلدي على قاعـدته. فـتح صـدر القمـيص الأبيض لتلعـب سلسلة الذهب على صدره، تحمل حمامة صغيرة تريد أن تطير. النوم يثـقل الجـفن والخصلة تـنام على الخد الأيـسر. خـرج وأغلق باب الـكشك المرقم برأس الدب الأسـود. ها هو الضـبـاب يرش شـارع ناصيـة البـحـر، يغطي الأحراش والشاطئ والمشوار الطويل. البنات : سروال ومـؤخـرة ترقـص، تغـمـز، تتلوى، الخـصـر ينتـحب والشـعر الغـلامي والطويل المنهـمـر كشـلال يريد أن يسـقي الأرض، ولا نظرة حنان وابتـسامـة في سبـيل الله من أجل الجـائع المعـقد والفـقـير. نـعومـة صندل الماعز تلعـق أصابع مرسي. أشـعل سيـجار (كبـير). تجرع الدخان والحسرة والحرمان.

- الأنثى مصيبة، تريد وتتمنع..

- نحن معقدون..

- تجرك مباشرة للقاضي أو لمركز الشرطة..

- معقدة..

- أفعى هندية وكاميرا أخبار مصورة..

البحر البشري يتموج، يتراكب في صفوف طويلة وعلى رأسها العصا، تفرخ الدواب في عرض الشارع.

- انظر يا صاحبي إلى هذه المؤخرة التقدمية..

- إنها مناضلة. ابتعد..

- أموت في المناضلات..

- المناضلات معقدات..

- أموت في المناضلات..

تقترب الأجساد من الأجساد ويجري التيار. يكون الهمس واللمس.

- أشم رائحة الجنس في الهواء..

تضحك ذات نصف قميص وربع سروال.

- لنجرب..

- أموت في المناضلات..

تقترب الأجساد من الأجساد ويجري التيار.

- يا حلاوة النضال ضد الرجعية..

- لنذهب إلى مقهى مدموازيل سوزي.

- لنؤخر الشراب إلى حين..

ذات البلوفر وهي تبتسم للشاب المراهق.

- هل عندك غرفة.. ؟؟

- نعم يا حلوتي. غرفتان وأكل وشرب..

تمايلت ذات القميص نصف كم. ضحك صاحبه وهو يصفق يديه. توقف مرسي أمام بائع السجائر وكشك الجرائد. تصفح جرائد الصباح : (العلم.. لوبنيون.. لوموند..) اشترى علبة سجائر. أشعل سيجارة، فتح الجريدة. صورة من حجم 12 x18 بالركن الأعلى من الصفحة الثانية لصاحب السعادة حاكم البلدة. صف السيارات والطربوش والطرابيش والجلباب الأبيض والبلغة المغربية (منقار فاس) وإلى الوراء، مقهى مدموازيل سوزي بسقفها القصبي ومطبخ زبنائها والنادل الطنجوي يقدم أكلات لشاب مغربي وفرنسية. هناك زواق يطل من باب المقهى. الكراسي اختفت تحت الأجساد. مربع

من البحر وعلم المراقبة الأسود متوقفا في رقصته. في الأعلى من الصورة تظهر مدموازيل سوزي القردة الشامبنزي تلعب بسلسلة قيدها وترفع مؤخرتها إلى السماء صوب الموكب الرسمي الذي دشن انطلاقة حفلة البحر والشاطئ. التعليق تحت الصورة. ياه... يا للسخافة.. لعنة الله على الكتبة والمحررين. لعنة الله على المرضى بطاعون الحزبية الضيقة. طوى الجريدة، السيارات تصيح، الأفواه تغني وتصرخ، والمؤخرات والأجساد المتفتحة للحب والعطاء والرذيلة. رذاذ الضباب صار كثيفا. الفوانيس الناعسة العيون، تصبغ الوجوه بصفرة الموت. الحاجز الخشبي كنقطة جمارك الحدود. لا تمر إلا بسلطان. مكبرات الصوت : (فاينك ألحبيب، فاينك – حلوة بشكل.. – وريني وحشك الغابة..)

– مساء الخير. مرسي.

– أهلا زواق.. كيف الحال ؟؟.

– تعب البغال وفقر المغاربة.

– كلنا ذلك الرجل.

الأجساد تفرخ الصهد وتسبح في العرق.

- وأنت ؟؟ وجريدة الرعد.. ؟؟

- كما عهدك بي. كنت بسوق الأربعاء الغرب - سوق الخلاء - لتغطية موسم الانتخابات.

- هل وجدت ما تريده.. ؟؟

- ظنك خاطئ يا زواق. تعبت كثيرا في الحصول على المعلومات الأولية. في تلك البلدة، لا يتمتع المرشحون بأدنى وعي أو مسؤولية تجعلهم يقومون بدور فعال لمحو الأمية والجهل والفقر وفقر الأدمغة. في بلادي، لا شيء إلا السباب والشتم والتمثيل الذي يعتبرونه سياسة.

- السياسة علم.

- نعم يا زواق، لكن أين رجالها.. ؟

- في انتظار ذلك، ماذا تشرب.. ؟؟

- واحدا كبيرا..

ضحك زواق. مسح يديه بمنديله الوسخ.

- في هذه اللحظة، لا أظن. على كل، سأحاول أيها الصحفي المعقد.

الدجوبكس يغني : (ياك ألبحور شاهدة..).
أشعلت سيجارة وتثاقلت إلى الوراء بمرفقي على الدجوبكس. أمواج الزبناء يدفعها بحر من العطش. تقرع الكؤوس. تلعب الألسنة. الصخب والغيطة والطبول، فرقعات البنادق والحر ودمدمة الأمواج البشرية، المسطرة هناك تحت قفة من الشعر المستعار، تغرق في ثيابها وعرق المساحيق وصراخ الحلوف وسباب الزبناء. قميص نصف كم. ربع سروال بلودجين. الصدر لوحة طفل مسطحة كأرضية ملعب الكرة الحديدية. تغرق في العرق. المسطرة تصرخ، تسب ثم تضحك. منذ مدة لم أرها. مرت تلك السنة التي جئت فيها هاربا، إلى ها هنا، من حب فتاة مسعورة تريد الزواج مني. وتعرفت عليها نادلة صغيرة بهذا المقهى العتيق الذي يحمل بصمات ما قبل الاستقلال وتوسعت دائرة أرباحه، فبنى المستر الهاشمي المضغوط عليه في قنينة. صف القناني، كالجنود، يقف في انتظام، يعطي التحية. صورة معلقة وراء المسطرة فيها نهر وسماء زرقاء

وصيادون. الزورق حفر بضلعه خطا والشبكة المشرعة كملعقة تغوص إلى صدر النهر لتأتي بالأسماك للأطفال والأفواه الجائعة. كان ذلك في بحر الصين على حدود بكين. كان ذلك. وردد مرسي في صدره : (وهنا في سوق الأربعاء الغرب - سوق الخلاء - الخشبة والمساحيق والتمثيل. الطبقات الكادحة ذكية، سكتت، نزعت ثقتها نهائيا وغسلت سروالها. والرؤساء، ورؤساء فيالق البغال، يزدحمون، يخيطون الدسائس ويقيمونها سوقا رابحة من الإشاعات والشعارات لملء الحقائب السويسرية بالبنكنوت والأسهم والامتيازات.. يتجسسون لحساب الذي يعطي، يحاصرون الطبقة الكادحة الذكية، طبقتي نزعت ثقتها وغسلت سروالها. تبيع صوتها بالسكر والشاي والزيت والدقيق. غسلت سروالها طبقتي. السياسة ميكروب، يجب أن تموت الجرثومة ليجري ماء النهر إلى البحر. من 1936 والدسائس تحاك. في 1956 تمت اللعبة.. كم يساوي عرضك ؟؟.. سكر دقيق

وشاي وفقر). دخن مرسي بعصبية. الدجوبكس يغني : (عندما يأتي المساء..). صعد مرسي درجات السلم الخشبي المؤدي إلى سطح المقهى. حاجز الأخشاب تتكئ عليه صناديق القناني الفارغة وأغطية زواق وعبده. غطاء ثالث مكوّم، هنا لرفيق أو صديق هلّ به الليل والحاجة. زواق صديق عمر طويل هو وعبده، يقتسمان فراشهما وقرشهما معك. لا تشعر بالجوع أو العطش بجوارهما. وفي الليل عندما يحلو السمر فوق المقهى(الطابق الرابع من فندق باليما) وسطح البحر، تجد فراشا دافئا وحكايا بلا عقد ولا خلفيات.

صعد زواق وميلود الصباغ، يحملان مائدة صغيرة ومقعدا وواحدا كبيرا. من تحتي، الشاطئ بمشواره وفيلاته الأنيقة وفوانيسه الناعسة العيون والمصابيح وحواء وآدم وعمامة الإصطبل.

- أحبك.. إلى الأحراش..
- أحبك.. لا أريد هذه البكارة..
- لا عليك. ستصيرين بالونة.

- أحبك يا حبيبي.
- أحبك يا حبيبي.

قال ميلود الصباغ وهو يقدس الشاطئ وأمواج البحر بإشارة من يده.

- اللهم أغرقنا في الجنس إلى الأذنين.

ضحك زواق وانحدر يجري على السلم الخشبي. جلست على المقعد، ملأت الكأس، أشعلت سيجارتي وأهديت الدخان إلى رئتي. مسحت عنق القنينة، ضربتها على خصرها ومسحت صدرها. شعرت بأنني سيد أفكاري. لم تبق لي إلا هذه الأفكار، صديقتي، تؤنسني بعذابها وحبها. دخنت سيجارتي الطيبة وتجرعت كأسي. أحسست بأن الأرض تتمدد، تغوص لتعطيني صورة مسطحة. عاد ميلود الصباغ يحمل واحدا كبيرا. جلس أمامي على السداري، اتكأ على الحاجز الخشبي وأشعل سيجارة. قميص نصف كم، سلسلة تحمل رأس ذئب. شورط أبيض وجميل. القدم حافية.

ملأ كأسه، أشعل سيجارة. ملأت كأسي، دخنت سيجارتي. عيني على حاجز الصخور النائم على صدر البحر.

- بحثت عنك البارحة بكوباكابانا، الكازينو، المسبح وحانة الغاب.. أين كنت.. ؟؟

- بكشك الدب..

- آه، كشك الدب.. ؟؟

- نعم.

- لم يخطر على بالي.

شاطئ الشليحات* تغمز به بطاريات الميادين ونجيمات صغيرة تلعب فوق رداء الأحراش الأسود. الأمواج تصفق خدها على الرمال، تثير النقع المختلط بندى الأملاح، فتكون إزاراً شفافا يتلفع به الشاطئ وتنعكس عليه أشعة القمر الأرجوانية، تنزل الجرعة، بحكم الجاذبية، إلى تحت، تصعد الآهة من صدري، يجرها قوس الحب، إلى فوق. أنا جالس بينهما، داخل جسد غليظ، على مقعد خشبي وثقل سبعة

* - قرية صغيرة على الضفة اليمنى لنهر سبو قرب مصبّه في المحيط. (الناشر)

أطنان تربطني بالأرض كدابة سهلة القيادة ليركبها الذي يملك. ضحك ميلود الصباغ. دخنت سيجارتي وملأت الكأس من جديد. قال مرسي لكأسه : (علمنا الفرنسيس والفقهاء اللصوص. ازدحمنا، رؤوسا، في دائرة النشرات السرية الأسبوعية. دابة مغربية طيعة جرتها من أذنها خليات المقاومة. دابة طيعة مغربية سحقتها السجون وتعبيد الطرق وحفرها بجبال بلادي. دابة مغربية طيعة تتفرج على مسرح المساحيق والأقنعة الفارغة من الداخل، دابة مغربية فقيرة وجائعة، يسوقها القوادون والقوادات بكتاب تعميق النضال في عقل البغال.

قالت الكأس وهي تبكي بدمع رقيق :

- ولا تفعل شيئا.. ؟؟

قال ميلود الصباغ وهو يقدس الشاطئ والبحر الثرثار :

- اللهم أغرقنا في الجنس إلى الأذنين..

- لا شيء يا كأسي..

الدجوبكس (في صوت الحمداوية)* :

أخوتنا.. يا الإسلام..

هزوا.. بنا العلام..

زيدوا بنا القدّام..

– بالگراج، البارحة، سألتني عنك كثيرا المسطرة.

جرعة أخرى. ولم أقل شيئا لميلود عن وجودي بحفلة البحر.

– المسطرة لا تهمني. لا أحبها.

ميلود الصباغ من ذلك النوع الخفيف. لا يلقي عليك الأسئلة بلا حرج. لا يعصرك كمتهم في نقطة استنطاق من الدرجة الثالثة.

– أكرمتني مدموازيل المسطرة بفتاتين، يا مرسي..

– هل تمتعت بالفتاتين، يا ميلود..

– نعم التمتع يا مرسي. منذ ستة أشهر لم أعرف المرأة..

* – مغنية شعبية (الناشر).

- وواه ..؟؟

- تماما.. المغربية معقدة بالطبع، تريد ذلك ولا تريد.

- النساء كثيرات..

- إنك شيطان، لماذا تتغابى..

ملأت كأسي وأفرغتها في حلقي. تمددت الأرض أكثر.

- وماذا تفعل، إذن.. ؟؟

- الصوم والسهر..

- ونعم العادة..

- الفرنسية التي أخذتني من الملجإ، أفسدتني بتربيتها. لا أستطيع التفريق بين الحب والجنس.

- الحب عند المغاربة هو الجنس.

- مساكين..

- اسقني من فضلك..

- المغاربة يعاملون المرأة كما لو كانت مومسا..

- لذا تكون المرأة المغربية مجبرة على أن تعيش

حياة ناقصة جنسيا..

- وما العمل ؟؟

- يطول الشرح.

صعد زواق يلهث، عينه تبرق وابتسامة فرح تعانقنا.

- واحد كبير.. اسقني وأعترف بأنني لا أحبك..

ضحك ميلود الصباغ، قرعنا الكؤوس، أفرغناها في دفعة واحدة. ملأناها من جديد وأفرغناها. قرعنا الكؤوس فارغة ونزلنا على المائدة الصغيرة بضربة حنونة. تكسرت الكؤوس. قبل زواق ميلود وقبله ثانية. ضمني ميلود إلى صدره. ضحكنا وذراع زواق على كتفي.

- اشتقنا إليك يا مرسي..

- وأنا كذلك يا حبايبي..

جمعنا شظايا الكؤوس، عاد زواق يلهث، وضع كؤوسا جديدة وواحدا كبيرا. امتلأت المائدة الصغيرة بالزجاجات المختومة والكبيرة.

- من أين يا زواق .. ؟؟

- الزبناء.. والسرقة..

- احترس من نفسك..

- لا تخف. ومن يعش بأرض اللصوص، يصر عالما مطلعاً ومتفهما..

ضحك ميلود الصباغ ورمى مرفقه على الحاجز الخشبي.

- اسقني، سأنزل لتلبية الزبناء الحلوف ثم أعود سريعا.

- اشرب يا حبيبي يا زواق. اللهم أغرقنا في الجنس إلى الأذنين..

- لا يقاسم المحروم إلا المحروم.

قرعنا الكؤوس. أشعلت سيجارة.

- أين اختفت مدموازيل سوزي.. ؟؟

نظرا إلى بعضهما. نسجا حاجزا غليظا. أصبحت غريبا.

- اسمع يا مرسي، اجلس معنا ومرحبا بك.. آه، نسيت. هناك سيدة أرملة تريد مقابلتك..

- لماذا.. ؟؟

- ولماذا، لا.. لأنك صحفي بجريدة " الرعد "..

تدخل ميلود الصباغ :

- أرجوك يا مرسي، هذه ليلة فرح، أشفق ولو قليلا على حالتي الجنسية وجوعي..

- لم أرفض مقابلة السيدة، ولكنني أسأل يا ميلود.. ؟؟

- لا تسأل وقابل السيدة. (التفت إلى زواق في حركة مسرحية جميلة)، يا زواق : قل للسيدة، أن الأستاذ مرسي، رغم مشاغله فإنه تواضع وخصص لها من وقته الثمين (الخبيث يقلد لغة التلفزيون) نصف ساعة. لكن عليها باثنين كبيرين ودجاجة محمرة وفتاتين للأستاذ ميلود الصباغ.

وقبل أن أرفض، هرب زواق ينحدر على السلم الخشبي.

- اتركنا، يا أخي، نشنق اليهودي من رقبته..

- لكن الخمرة والدجاج.. ؟؟

- لا عليك يا مرسي. أنا جائع.. وهذه حفلة البحر تذكرني بموسم الانتخابات.

صعد زواق يلهث. وضع زجاجتين ودجاجتين. قبله ميلود الصباغ. دفعه زواق فأسقطه على الحاجز الخشبي. ضحك ميلود وفتح ذراعيه ليعانق الفضاء.

- اللهم أغرقنا في الجنس إلى الأذنين..

خطف زواق سيجارة، أشعلها وأفرغ كأسي في حلقه.

- السيدة قادمة..

نزل زواق يجري. تبعه ميلود الصباغ ليأتي بمقعد للسيدة. وصعدت خطوات ثقيلة بها شوق وسكر. جلباب ستان أبيض. فولار، على شكل ربطة عنق، حقيبة يد أنيقة سوداء تلمع تحت عين القمر.

صعدت السيدة، على رأسها قفة من الشعر المرتب بذوق. مسحة أصباغ وأزرق على جفنيها كمسافرة نصف الليل.

مدت يدا رخوة ودافئة. أصابع كأقلام البلور

نامت بيدي.

- أأنت مرسي الصحفي بجريدة الرعد.. ؟؟

- نعم.

نظرة كاميرا سرية. أمرقت عينها ثم ضحكت بنعم دافئ.

- مدموازيل زبيدة.

- تفضلي.

قفز صاعدا ميلود الصباغ، وضع المقعد خلف مدموازيل زبيدة. أكلها بعينيه. أشعل سيجارة. جلست زبيدة وهي تنظر إليه في استعلاء. ابتسم مرسي. أشعلت زبيدة سيجارة مارلبورو بولاعة ذهبية. ملأنا كؤوسنا، قرعناها وأفرغناها في دفعة واحدة.

رددت بصوت ناعس.

-شربت واحدا كبيرا.

نظرت إلى ميلود الصباغ في استعلاء. تقرفص على السداري، دخل في جلده، دخن وهو ينظر إلى البحر البشري المتموج بغضب.

- لا يجوز يا مدموازيل أن تحتقري صديقي ميلود الصباغ.

- إنه مغربي التربية والسلوك. لقد عراني من ثيابي بنظراته.

نفث ميلود الدخان في غضب.

- المغاربة فقراء ومحرومون من المرأة..

- المغاربة لا يقدرون المرأة.

- لتتفهم المرأة وضعهم المريض بحكم تربية عتيقة جعلت بين الرجل والمرأة حاجزا وكونت لديهما عقدا دفينة في اللاشعور.

- من أجلك جئت، لا من أجله.

- يعني..؟؟

- جئت أتحداك..

- (الحرب مستمرة منذ بدء الحضارة - يقول فرانسوا صديقي الكاتب.. -).

- حدثني عنك فرانسوا عندما كان بالرباط بفندق باليما (وضحكت وأنا أشير إلى سقف مقهى مدموازيل سوزي. فهمت زبيدة الإشارة وضحكت

هي الأخرى) أعرف ذلك (ثم ابتسمت) تدعي أنك تستطيع البقاء على صدر المرأة ثلاثين دقيقة.

– ... (ابتسمت من وراء دخان سيجارتي. التفت ميلود وكله آذان..)..

– من الناحية العلمية، المرأة لا ترقى إلى اللذة الكبرى إلا في مدة عشرين دقيقة. ولا يستطيع رجل مهما بلغت قوته أن يبقى على صدرها أكثر من دقيقة واحدة..

– أعرف ذلك..

– ... (سكتت. دخنت ونظرت من عليائها..)

قفز ميلود الصباغ وقال في استعلاء :

– كم ثمنك يا مدموازيل.. مرسي يستطيع أن يبقى على صدرك 45 دقيقة، قياسا إلى زمن أغنية (فات الميعاد)..

– لا أظن ذلك..

– لنجرب..

– كم ثمنك يا مدموازيل.. ؟؟

- ما يريده مرسي..
- فتاتان لي أنا. أربع دجاجات وزجاجتان..
- قبلت الرهان.

دخنا وشربنا. مزقنا الدجاجتين. مدموازيل زبيدة تأكلني بعين جائعة. شابة تحمل 28 ربيعا. شربت كأسي. تمددت الأرض، فأعطتني وجها مسطحا. غامت الموجودات حولي، فاستيقظت وسط الطريق إلى المعبد الغافي وسط الغاب. قدمي تمسح التراب، يدي تبعد عن الوجه أغصان (الصوما) (1). تسللت إلى حجرة المعبد وسط الصخر. وقفت أمام الأيقونة التي حفرتها أيد تقية مثلت الرمز، ألصقته بالصخر ثم اختفت في الزمن. مسحت بيدي تمثال (اليوجيني) (2). مال القمر وراء سفح الجبل، فأضاء (اليوجيني). الثعبان إلى تحت والأنثى - الأم - شيفا إلى فوق. غرقت في زمن الأيقونة ودخلت في زمن ذاتي. ركزت على

1 ـ الصوما : شجرة مباركة يتداوى بأوراقها.

2 ـ اليوجيني : قوة خفية تخترق المادة في كل لحظة وتعطيها الوجود الظاهري في الزمن.

التمثال، فرأيت الأشعة زرقاء، صفراء، تخرج من (اليوجيني)، تربط المادة بالصورة - الرمز ثم تنتقل إلى مركز الدائرة. أصبحت وسط المركز ولا محيط. هذا هو المركز، لكن أين الدائرة.. ؟؟.

يد باردة بعض الشيء تحركني.. آه زبيدة.. يدها الحنونة تمسح يدي، توقظني.

- لماذا غرقت في ذاتك.. ؟؟

- ولماذا لا أغرق في ذاتي.. ؟؟

-نوع من الهروب..

- العودة إلى موطن القوة، ليست هروبا.

- أفي الذات قوة ما.. ؟؟

صرخ في استعلاء ميلود الصباغ :

- إن الأم ومركز القوة في الذات يا مدموازيل (ومطط لفظة مدموازيل).

وقفت وهي تأكلني بعينيها الجائعتين. سبقتني وأخذت من زواق مفتاح الغرفة الضيقة. دخلت المرحاض. تحت الدش. اغتسلت بالماء البارد. وقفت عاريا بمنعطف مقهى سوزي المحترمة. تحت السقف

القصديري، ندى الليل وهواء البحر يغلفاني. صلبت ذراعي وراء ظهـري وملت إلى الوراء. مـلأت الرئة كلها وأطلقـت الأشـعـة تمسح شبكة الأعـصـاب. دخلت إلى الغـرفة وأغلقت الباب، هي عـلى الفراش الصغير كـتـمثـال رخـامي نحـته مثـال إيطالي من فلورنسا. القنديل على المرفع الخشـبي يمسح بعين فـتيلتـه مفـاتن التـمثـال الرخـامي. توقفت أمـام باب المتحف لأشاهد الأناقـة والإبداع. تمددت بجـانبهـا وأطلقت عـضلاتي ككيـس فـارغ، شعـرها، تنام خصلاته على صدرها الـبكر كرؤوس الأفاعي تحمي التمثـال برؤوس مسمومـة. وأطلقت الأشعة، دفعـتها بقـوة، فـامـتـلأت الغـرفة الـصغيـرة. ركـزت حـتى أصبحت شـبكة من الأعصاب. رقصت نجـمة أمامي وأحسست ببرودة أنسام الربيع. ملت عليها. أنفاسي هادئة وعميقـة، تصعد على درجة 16 ضربة قلبية ثم تنحـدر إلى درجة الـصفـر. غـرقت أكثـر في الدفء وعض الثـعبان ثوب الحرير. غـرقت في الدفء هي تقطف الورد بشـفتيـها. تلعق العـسل. الثعبان يعض

ثوب الحرير، غرقت أكثر في الدفء. وضبطت أنفاسي، فانتظمت ثم نسيتها وحلقت بعيدا على أجنحة النسر. نفس الطريق النائمة في ندى الفجر، تتلوى، تنحدر، على سفح الجبل. الصبح لا يطلع بعد. أنا ألبس الإزار الأصفر. حافي القدمين. عكازي يميني والفضاء رحب الأشعة.

يثرثر الصوت في صدري :

- (أنا الأم.. الآن تستطيع أن تستيقظ..) (1)

ألهث في المشي، أصعد الربوات، أنزل إلى الأودية. عكازي بيميني أتكئ عليه، يرافقني، يضرب الأحجار برأسه. أشعر بالمؤانسة تبعثها في صدري أشعة الفضاء الرحب. المغارة بعيدة وأقترب أكثر. بيننا نهر بارد.

رميت إزاري ونزلت إلى النهر مرتين..

- (يثرثر الصوت في صدري :.. يا نازل النهر.. من أنت.. ؟؟) (2)

---

1 - شيفا : (الأم) رمز لولادة العالم وفنائه.

2 ـ آتمان :الصوت (في المعبد الداخلي)

- (أنا ..)

- (أسكت ..)

أسبح وأسكت، فأجد راحة وطمأنينة. يجرني التيار، أنام على ظهري كخشبة ميتة. أطفو كخشبة. يحملني التيار ويجري. تسلقت رأس الصخرة. نزلت إلى عمق المغارة لأشاهد الحرف الأول. نزلت أكثر. توقفت أمام الحجر الأبيض الذي رسمت عليه أصابع تقبة الدائرة والمركز. وجلست في هدوء ونظمت أنفاسي، فانساقت طيعة كموجة تعانق خد الصخور. نقطة المركز تقترب مني، تفتح فمها، تكبر. غابت الدائرة تماما. وقع الانفجار في دماغي. صرخت زبيدة ثم نامت. نزلت بهدوء ودخلت تحت الدش. عدت إلى الغرفة الضيقة. كانت نائمة ودمع رقيق يغطي جفنيها. مسحت دمعها بشفتي. قبلت أنفها الرقيق. مسحت شفتيها بشاربي.

تنهدت ثم استيقظت :

- إنك شيطان..

- لماذا.. ؟؟

- إنك خبيث. كان من حقك أن ترفض..
- لماذا.. ؟؟
- من سيعطيني. في المستقبل، مثل هذه اللحظة..؟؟
- الرجال كثيرون.
- لا تقل ذلك..
- أفضل معاشرة الناس في سلام. أكره التحدي.
- ...
- والآن.. ؟؟
- كان عليك أن ترفض..
- ...
- إنك شيطان. أصبحت أحبك ولا يمكن الاستغناء عنك..
- لا أظن ذلك.
- أحدثك كامرأة..
- لا أعتقد.
- لا يمكن الاستغناء عنك..

لبست ثيابي وهربت بجلدتي. تركتها بالغرفة الصغيرة تبكي. ميلود الصباغ يرقص على السلم الخشبي. يدخن بيد ويرفع الزجاجة بأخرى ثم يفرغها في حلقه.

- ميرسي يا مرسي. سمعت صراخها.. كنت رائعا..

- إنها الآن في لحظة اختيار.

- ماذا.. ؟؟

- أكره ذلك.. هذا النظام (1) خطير.. أكره ذلك. تصبح المرأة خادمة لك..

- أريد تعلم هذا النظام يا مرسي..

- أفضل صومي وسعادتي مع أفكاري.

- إنه نظام رائع، يا مرسي، أرجوك، أريد تعلمه..

- نظام خطير. عليه اللعنة.

- العيب ليس في نظامك..

1 ـ هو نظام خاص باليوغيين ورهبان البوذية للسيطرة على لحظة القذف وعواملها الفسيولوجية ونجد نفس النظام عند بعض الفرق الصوفية بكاليفورنيا.

- صحيح. لولا استعلاؤها عليك لرفضت..
- شكرا يا صديقي.
- هل من زجاجة ؟؟
- أربع، هناك، على المائدة ودجاجة.
- أخبارعزيزة..؟؟
- حفل راقص بالمسبح.
- احمل إليه زجاجتين ونصف دجاجة.
- سأفعل، مرسي، هل تسمح بـ (وأشار إلى الغرفة الصغيرة حيث تنام زبيدة على دموعها).
- لا تفعل، إنها أخطر من أفعى.
- سأحاول..
- شغلك..

تسلقت الجدار الصغير وقفزت إلى الشاطئ. البحر البشري يتموج. حلقات حمادشة، هداوة، عيساوة. الغيطة والهيبية المستعارة والهيث والرقص الشعبي. هذا يوم القيامة. مكبرات تصرخ : (ونقول للشمس) إذاعات كونية وأخبار ونشرات. على المنصات بعض الزعماء والمرشحين يلقون خطبا رديئة

في الرؤوس الفارغة - الذكية التي غسلت سروالها. قرب جدار كشك حراسة الشاطئ، حفرت حفرة ودفنت ثيابي. قبلتني نسمة البحر وغطاني الندى الليلي، ملأت رئتي ونسقتها مع خطواتي مشيت في الشاطئ الواسع تحت قرع الموج وصخب البحر البشري. الخطوة تتبع أختها، تدفعني إلى الأمام. الشريط في الدماغ يؤلمني، وصورة السهم الأبيض يشير إلى مدموازيل سوزي المحترمة، سلطانة البر والبحر. اختفت المسكينة. أين المستر الهاشمي ؟؟. الأكسجين في شحنات يصعد، يحترق، يتسلق العمود الفقري من تحت إلى فوق. الأمواج تتدافع كالأغنام، تسقط صرعى على الشاطئ وتعود إلى صدر البحر، تجر الذيل تيها أمام عين القمر الساخر. خط الصخور مغطى بوشاح الضباب، نائم في صمت أبدي وثقيل. هربت بجلدتي من سوق الأربعاء الغريب سوق الخلاء. بعد ما نقلت تليفونيا تغطية، نشرتها جريدة الرعد. ركبت شاحنة تهرب إلى المدينة. رمتني الشاحنة بمقهى (لاروطانض)،

تجرعت بيرتين وتلفنت لمدام بيريز صاحبة فندق الغرب.

- نقلوها إلى المستشفى..

- ماذا.. ؟؟

- جاءت عصابة مسلحة تريد بك شرا.. كسروا آلة الكتابة، مزقوا الكتب. واعترضتهم مدام بيريز، فكسروا ذراعها ورأسها.

- المسكينة..

- لا تشفق عليها. إنها سعيدة.

- يؤلمني ذلك..

- إنها سعيدة..

أمس البارحة، اختفت مدموازيل سوزي سلطانة البر والبحر. صديقتي مدموازيل، يتيمة الحياة، لا أحد يحنو عليها.. وداعا يا رفيقة السمر وثرثرة البحر.. وداعا يا مؤنستي تحت الأباجورة، بالغرفة الضيقة، في ليل عذاب الحرف والكلمة..

أيها الساري والناس نيام بشارع ناصية البحر والمشوار الطويل. خفف الوطء، فإن لي بهذه الربوع

أحبة : زواق ومدموازيل سوزي. رفقة لا يجود الزمن بمثلها، أبدا. غرد بصوتك أيها الساري ليلا فإن رفقتي تحب الغناء. أسجد للبحر وأسبح به تحت عين القمر. سيطوينا الدهر ويبقى الابتسام والغناء..

أحفر في عمق الذاكرة التي لا تنسى، نعم يا المستر الهاشمي، هذه آثاري تتبعني رغم البعد والمسافة الطويلة. نعم يا المستر الهاشمي أيها الرجل - القنينة، المضغوط عليه في زجاجة ألقيت في البحر من عهد مرور السفن الفينيقية إلى قابس وأشرعة الرومان من بحر كورانث إلى مضيق البوسفور. وأنت هو أنت. نفس الرجل المغربي المضغوط عليه في قنينة زجاجية مات لمعانها. من عهد سليمان وداود الحكيم الذي كان يفلي (دربالته) من قمل أصحاب البطون والمؤخرات. هكذا.. آثاري تتبعني إلى نهاية العمر لأجد ذاتي. وأجد العالم. احفر خطا، يا المستر الهاشمي، في الذاكرة. أعطني يدك ليعبر التيار مني إليك.. هكذا. أيها المضغوط عليه في قنينة زجاجية. أيها الرجل الأمازيغي، أخي أيها

المغربي العربي، هذا سفرك من عهد الرومان وفينيقيا والكاهنة اللعابة على شفتيها آثار أصبع (السواك) وتحت ظفائرها رائحة زيت آرغان وفي عينها شوق الإبحار إلى بحر كورانث ومضيق البوسفور وصحراء اليمن.. إيه يا ابن أمي أيها الأمازيغي المغربي العربي. هكذا. اترك يدك في يدي ليعبر التيار مني إليك. أخي الأمازيغي، أنا هو أنت، المضغوط علينا في قنينة، في متحف، في برج زجاجي تلعقه الكاميرا وتحصي طوله وعرضه أقدام الغرباء. قنينة نبي الله داود والأحبار والأسباط والرهبان والصلبان. آرغان تلك الشجرة الملعونة لم تنزل إلى السفح يا ابن الكاهنة اللعابة، الكاهنة تمشي في تلال إفريقيا، تستعرض ذكريات الرجال الذين أحبتهم ورفعوها إلى قمة اللذة والقوة. الكاهنة وآثار أصبع (السواك) وبخور الهند وبحر كورانث وطريق الحرير تعبد من جديد. نفس القوافل تمخر خد الصحراء. نفس الآثار تمسحها الرياح.. وأنت.. أنت الأمازيغي المغربي العربي. هذا سفرنا من عهد الفيل

وقارون وهامان، إلى عـهـد الطوفان الأول وأولاد الأمريكان والمحترمة صاحبة العظمة، حاكمة ما بين النهرين التي دخلت إلى التاريخ على خيشوم كلب، مدموازيل غولدا مايير. افتح أصابع يدك، هكذا، اترك التيار يجري بيننا.. هكذا، تذكرني بأصابع أمك يا مستر الهشوم، الهاشمي، تشير إلى السهل المنبسط ما وراء السفح. تلك الأصابع المخضبة بالحناء السوسية، تلبس أساور وخاتم الحضارات القديمة. تشير أمك إلى السهل المنبسط وراء السفح، وتدخل في الزمن. ولا يبقى منها إلا ظل آرغان المشقق ورائحته الزكية وآثار أصبع (السواك) و (الخنت) والخنجر القديم و (الشكارة). الطريق تمد عنقها وأنت تحمل على قفاك قفة التمر لتبيعها في السوق، ما وراء السفح، بأسبوع. لا بغل ولا حمار. الفقر قيد، أخي الأمازيغي المغربي العربي. أنا وأنت، دابة شغل تدفع حجر سيزيف إلى رأس الجبل وحذار من السقوط. الرجل – القنينة، في متحف يعمه الطلبة وكاميرات الأجنبي. الطريق طويلة إلى السوق

والجوع والشمس والريح المسعورة تلعق خد الصخر تغطيه برداء الموت. دخلت أمك في الزمن وخلفت وراءها ظلال آرغان المشقق والريح المسعورة التي تمسح خد الصخر والعقرب والبوم والغراب والأفعى الهندية. تعود إلى القصبة بعد أسبوع. تقبع بالزاوية خائفا من الأنظار، يأكلك الخجل وحرمان اليد. تبكي كطفل صغير.

العمامة الصغيرة على الرأس. الجلباب القصير و(التشامير) السوسي والبلغة القفاز، الجوع يمضغك تحت أضراسه بشهية كبيرة.

- (لا تأكل.. لا تأكل..) تقول أمك من وراء الزمن.

- يا أماه، الجوع..

وأكلت من تمر القفة، فكانت اللعنة.

- آلو مستر الهاشمي.. ؟؟

- نعم.. ؟؟

- كتابة حاكم البلدة.

- نعم يا مولاي..

- ما معنى أن تكون لك قدرة على سطح المقهى..؟؟

- نعم يا مولاي، لكن..

- أنسيت أنك تملك بناء على أرض جماعية.. ؟؟

- نعم يا مولاي..

- اطردها أو أغرقها في البحر.. فاهم..

- فاهم، يا مولاي..

سكت التليفون. بقيت مشدوها يا المستر الهاشمي. كنت أرضا وسماء ونجما وقمرا. ابتعدت أمك ودخلت في الزمن وهي غاضبة. صرت عبدا للمادة أيها المستر الهاشمي، يا هشوم، هشيشم. نسيت قول أمك : (لا تأكل). أمك الكاهنة غابت في الزمن وخلفت وراءها رائحة النعناع والقصبر والخزامى. أمي قالت لي وهي تدخل في زهرة اللوتس : - أنت صوم..

وصمت وتعلمت لغة الحيوان. لا تبك يا المستر الهاشمي، تخاف على مربع من الأسمنت

ورقعة أرض والبنكنوث. أنت المستر المحترم داخل القنينة، في متحف تعمه الكاميرات والطلبة. ولم تغضب من أجل رفقة حنونة. ولم تودع مدموازيل سوزي، نفيتها ليلا، رميتها في الغاب بلا زاد وقبلة وداع. بقيت وحدها تتفرس في الفراغ، تسائل الليل والنهار والنجم والقمر. الحزن يدكها والجوع. يتيمة الحياة، سوزي في غابة المعمورة منفية، قردة من فصيلة الشامبنزي. تفلي ثوبها، تأكل قملها.

والفضاء حولها فراغ وهول وخوف مبهم. قتلت فيها كل حاسة. يتيمة الحياة، مدموازيل سوزي. كلما لاح ظل من ظلال آرغان المشقق. أمسح دمعتي أبعث بحرقة قلبي الصغير، ذكرى عزيزتي مدموازيل سوزي، قردة إفريقية من فصيلة الشامبنزي.

وصمت. تعلمت لغة الحيوان. لا تبك يا المستر الهاشمي. لا تبك، لا يا أخي..

غطست في البحر. سبحت بعيدا ثم عدت إلى الساحل وتمددت على الرمال.

– مرسي..

صوت مريض وخائف يبحث عني تحت الضباب. جلباب ونعل مغربي (بلغة) قميص طويل (تشامير) أصفر كراهب بوذي. الحزن عمامة على الرأس والقناع شاحب. شاربك تهدل وغطاه الندى بقطرات تذكرني بدموع أمك وهي تلم ذيل خنتها وتدخل في الزمن. في السماء الغضب والرياح التي تسبق العاصفة. بحلقك خشخشة أوراق آرغان تحرقها الريح المسعورة وظمأ الماعز والأرض الحجرية التي عمرتها العقارب والأفعى الهندية.

– أنسيت قول أمك : (إن الذي يملك، يملك..)

– لا تذكرني بأمي..

– أمك كانت تعرف بغريزة الأنثى – الأم التي سحقت الصنم في ذاتها، نزلت إلى عمق البئر وغرقت في الزمن. كانت تحب رجالا من طينة خاصة. أحبت أمك النجم والقمر والسهل المنبسط من وراء السفح.

- لقد جعلت المادة صنما..

- وأمك من شدة حبها، عشقت الريح المسعورة التي تمسح خد الصخر، والعقارب والأفعى. كانت أمك نغمة وتر وخشخشة أوراق آرغان في فصل القطاف.

- لا تذكرني..

- احمل صنمك..

مسحت دموعه نسمة البحر. غطانا الضباب. صرنا شبحين وافترقنا. عدت إلى مقهى مدموازيل سوزي، يتيمة الحياة، المنفية في زمن البغال. صعدت سلمها الخشبي. زاوية الفم ترضع سيجار كبير. ابتسم رداء الضباب، فأبرقت عين نجمة بتحية الليل. الهدير ودمدمة البحر البشري يختصمان تحتي. ميلود الصباغ مكوم على نفسه. رأسه تحت الضمادة.

- ماذا حدث.. ؟؟

- أخطر من أفعى..

ملأت كأسين وأعطيته الثانية. رميت الشراب بحلقي لأطرد رائحة الجثة. اتكأت على الحاجز

الخشبي وسألت نفسي : (أين تكون. الآن، المسكينة صديقتي سوزي.. ؟؟) تحتي البحر البشري يتراكب، يسقط، يتنفس ويأكل أحشاءه ويطعم. والصنم الملعون في الأفق يفتح ذراعيه. يسقط العباد على الأرض يصرخون ويكشفون عن عوراتهم. العجوز الشابة في عظمة موكبها تقف وراء الصنم. تنهق الدواب. وبإشارة من يدها - يمسخون خنازير وعقارب. تنزل المزبلة. ومرحبا بك يا حفلة الشاطئ والبحر..

أشعلت سيجارة. هو ينتحب بصوت طفل في جسد كبير.

- امسح دموعك.
- أخطر من أفعى..
- ما هي الدابة.. ؟؟
- لست أدري.
- ...

صعد زواق السلم الخشبي.

- يقول رسول عزيز : (لا تنم هذه الليلة..)

– ولماذا ؟؟

– لا أعرف.

– سأكون بكشك الدب.

قرعنا الكؤوس. التفت زواق مستفسرا.

– هل شارك ميلود في الحرب.. ؟؟

ضحك زواق. احتسى ميلود كأسه في غضب.

– أخطر من أفعى ومعقدة..

– ربحنا الرهان..

– ليتك لم تفعل.

ضحكت وأفرغت كأسي. بحلقي شوكة سمك. تمنيت نسيان هذه المحادثة :

– آلو، رئيس تحرير جريدة (الرعد).. ؟؟

الازدحام وصراخ البحر البشري.

– صباح الخير، أنا مرسي..

– السيارات.. السيارات..

– كيف تسمح لنفسك بمغادرة مكتبك بسوق الأربعاء الغرب.. ؟؟

- سوق الخلاء.. نعم..

- ... انتظر آخر الأخبار، يظهر أن مرشحي حزب الديمقراطية..

أم كلثوم : (ونقول للشمس..)

- آلو، لا لا، مرشحو حزب الأخوة والنضال هم الفائزون. ثم إنني تلفنت لك لا من أجل هذا الموسم الانتخابي الردئ..

أبواق السيارات وصراخ البنات وضحكاتهن.

- آلو،، لا أسمعك.. ؟؟

- مسرحية سخيفة لا أحتمل رؤيتها.

أبواق السيارات وضحكات النساء.

- آلو..

- آلو، جريدة (الرعد).. ؟؟

- نعم.

- الصورة التي نشرتها الجريدة بالصفحة الثانية..

- أية صورة.. ؟؟

- صورة حاكم البلدة..

- هل أصبحت تهتم بالصور.. ؟؟

- حرام يا ناس، حكمتم عليها بالنفي..

- النفي.. من هي ؟؟.

- مدموازيل سوزي..

- من هي هذه المحترمة سوزي، أهي مرشحة جديدة لحزب النساء المتحررات.. ؟؟

- حكمتم عليها بالنفي..

- ماذا تقول.. ؟؟

- طردت المسكينة..

- الطرد.. ؟؟.. من هي.. ؟؟

- مدموازيل سوزي القردة.

- قردة.. ؟؟ أتحدثني عن قردة يا مرسي.. ؟؟

- نعم..

- اسمع يا مرسي، اعتبر نفسك عاطلا لمغادرتك مكتب سوق الأربعاء الغرب..

- سوق الخلاء.. أنا أكره السيرك..

- أنت مطرود.

- سمعت ذلك.

رميت السيجارة من زاوية فمي وبصقت في الفضاء. وقف ميلود وأشار إلى جهة ما في البحر البشري.

- انظر إلى عزيز وزواق. والله، نعم الليلة..

-ماذا.. ؟؟

يسوقان ست عجلات هولنديات.. ؟؟

رمينا الكأس في الحلق. بصقت في الفضاء.

- اللهم أغرقنا في الجنس إلى الأذنين..

هجم الجنس بمشاته ومدرعاته. الميني والبلودجين. ما أسعدنا في حسرتنا وفقرنا. عرش الشابة العجوز (1) تحميه المشاة والمدرعات الشابة من الجنس الضعيف. الملايين تموت، تغرق في البحر. وصليب العجوز الشابة منذ الأزل على أكتاف الدواب. مشاتها عرين الصدر والساق، فجثا العباد على الركبة وغطسوا في الأوحال والمراحيض. شربوا الحسرة ألف كأس، شنقوا أنفسهم، صاروا بغالا وراء موكب الفتنة. نهقوا بأصوات عالية وعضوا بعضهم.

---

1 ـ مايا : المادة كصنم يعبد في الأرض.

قفز فرانسوا على السلم الخشبي ولوح بيده فرحا.

- هللو مرسي..

- هللو فرانسوا..

ضمني إلى صدره وقدم صديقتين له.

- مرسي.. مدموازيل نيكول ومارتين..

صفحة وجه كنافذة تطل على جبل من الثلج الحزين. خصلات غلامية في لون جناح غراب. عيون الصبيان التي أجرمت قبل أن تولد في هذا الوجود. قرعنا نخب الحب وعشق الحياة. أحسست أمام جمال مارتين بأن كبريت العاصفة قد مات في الحلق. انحدرنا في هدوء على السلم الخشبي. نيكول لها فخذا رجل الجمارك. الميني جوب قصير. طويلة كعمارة وكلها أعصاب. مارتين، نصف قميص أزرق وشورط أبيض. حذار من النظر إلى تمثال الموت الأسود. بركان من الأنوثة المدمرة. فرانسوا، بلودجين وبلوفر وقميص أسود. غليون في وجه منحوت على صخر مونتسيغورت. مدرعات

العشق، في الهواء، في النسمة، في الابتسامة. الشابة العجوز بفيالقها تنتظرنا بالمنعطف. مارتين كقائد عسكري، تشق هذا البحر البشري. تتعلق بها العيون والجياع في وقاحة سافرة. هي تحت مظلة عظمتها لا تشعر بالبسطاء والمهزومين. ترد العيون الحسرة تلو الحسرة والتنهدات، تتسول التفاتة. حذار من النظر إلى تمثال الموت الأسود. البحر البشري يتموج، يتراكب، يتمطط إلى نهاية العمر.

– أين اختفيت أيها المجرم.. ؟؟

– كنت بالرباط وفي عودتي من (أغرم) تعرفت على نيكول ومارتين..

– (أغرم).. ؟؟ وما علاقتك بها.. ؟؟

– إنها بطلة مونترلان..

– ومارتين.. ؟؟

– عازفة كمان. فرنسية متحررة..

– و(أغرم) يا فرانسوا.. ؟؟

– حبذا لو زرت تلك الديار.. الروعة يا مرسي..

- وكيف. البرجوازية تخطط للقضاء علينا. بيننا عداوة قبل استعماركم لنا..

- البساطة في العيش وعظمة الإنسان المغربي..

- والفقر والجهل يا فرانسوا. إنك تنظر إلينا بعينيك الفرنسيتين.

- بالعكس. أنتم ضحايا..

- نحن دواب.

شربت غضبي في سيجارتي. الفوانيس الناعسة تصبغنا بثوب أصفر. تدخلت نيكول وحللت وضع المرأة المغربية، من وجهة نظرها. وكرهت ذلك، أختي المغربية البقرة المستغلة. أحسست بطعنة نيكول في قلبي. أختي، حبيبتي، غطيتها برداء التستر والحشمة. وأنياب نيكول حادة. أختي الحمارة الميتة، واقفة من الشغل وجر العربة، من يعترف بجميلك علينا ؟؟، من يعترف ؟؟. وأنياب نيكول حادة ورأسها الطويل في جبهتها الضيقة مشرط جراح مؤلم. كرهت ذلك. أختي المغربية

أصبحت خريطة وتمثالا في متحف. تأملت مرتين. أنياب نيكول حادة. فرانسوا يدخن غليونه الطويل. مارتين كانت ساكنة. سيجارتي بزاوية فمي. طار ميلود الصباغ يخترق البحر البشري لمساعدة زواق وعزيز. ابتسمت مارتين، فنزلت على حرقة قلبي قطرات السماء. ميلود يقفر وفي صدره جوع ألف سنة. غيبهم عني منعطف شارع ناصية البحر وكشك السجائر. تشاغلت بالاستماع إلى (غيطة) مزمار بلادي. رأيت نيكول قد مسخت جنرالا يركب جوادا عربيا. عينها قاسية، وعلى رأسها قبعة الحكم. على رأس فرانسوا غصن الزيتون. وضحكت مارتين وفي صوتها سمعت عزف باخ وموزار. نزلت على قلبي قطرات السماء. يدها في يدي وقالت : (نيكول حقودة.. أنا معك..) ضحكت من جديد وأغرقتني في بحيرة عينيها وعطرها. رفرفت الحمامة في سلسلتها على صدري. غرقت في العطر. ابتسم تمثال الفتنة. رأيت أمي تلوي إزارها وتدخل في الزمن. رأيت أمي في عيني مارتين وفي ابتسامتها النار

والنور. الديكور حولي يمسخني مرتين وتغيب تاريخ أجدادي بين عتمة القبب. نيكول حقودة ؟؟.. لا أظن ذلك..

المكبرات حولي تصرخ :

- (عش أنت..)

والتمثال في المتحف :

- (وأموت أنا..)

وأنا على رأس المزبلة تحت رداء الضباب الأصفر. كنت متعبا. عيون الفوانيس تعبت من السهر. تمنيت واحدا كبيرا بلا وجوه حقودة ولا ألسنة مريضة. تمنيت ذلك. عطر مارتين رغم حرارة الازدحام يشدني بخيط سري، يجرني من أنفي كسمكة إفريقية سمينة وغبية. كل حركة لديها نغم وبخور ورحلة في همس الربيع.. أماه ما أشقاني بهذا العذاب. ضحكت مارتين.

- لماذا أنت حزين.. ؟؟

- من رأى الحقيقة، تمنى الموت..

- وهل رأيتها.. ؟؟

- رأيت ظلا من ظلالها..

- شيطان لذيذ..

ووعدتني يدها سرا وتلفنت أصابعها، في يدي، همسا. نحن وسط البحر البشري المتموج. المتراكب : الهمس واللمس، المضمضة والاستنشاق..

كشك الجرائد والكزينو حطت الرحال على جدرانه السيقان المتعبة وبائعو الكاكاو والإسفنج المغطى بالسكر. بائعو المشروبات تجمهروا هناك أمام مرأب - السّاتيام - ولا حافلة. غازلوا البنات وهم يحتسون البيرة الأمريكية. اشترت نيكول علبة غولواز. مارتين اقتنت قنينة عطر ومشطا من قرن الماعز. كشك الصحف والسجائر بسط مائدته المحملة بالمجلات النسائية والأفلام المصورة الرخيصة. بواجهاته، معجون الأسنان، عنبر الشمس وسروال السباحة والمظلات وبالونات الأطفال الملونة. الازدحام على واجهات الحوانيت. الأسنان تطحن السردين المعلب والخبز اليابس. يمتلئ الفم ببول

كوكاكولا وفانتا، تلعب الحنجرة، تسكت معدة الدابة لمدة ما. تصفحت الجريدة. فرانسوا يشعل غليونه ويتأملني. اشتريت جريدة. دخنت نيكول سيجارتها ونفثت دخانها في رجولية. الصفحة الأولى تمثيل ومساحيق وسباق الكلاب والخيل. ابتسم فرانسوا. الصفحة الثانية نافذة تطل على مزبلة بلادنا. الفوانيس صفراء من السهر. مسحت دمعة صفراء ومريضة. اشترت نيكول شريحة لحم مسحوق في نصف من الخبز. نظرت إلينا شزرا، دخنت سيجارتها بنصف فم وأسنانها تطحن. نفثت الدخان من أنفها كقطار. كانت رائعة كحلوفة، أغرقتني مارتين في بحيرة عينيها. ابتسمت في ألم ورمت خصلات شعرها بحركة من عنقها المحفور في الرخام الأبيض، كغزالة استيقظت للتو في غاب بلادي. مسحت دمعة صفراء وابتسمت لمارتين. قالت نيكول لفرانسوا شيئا في أذنه. ضحكت نيكول وغضب فرانسوا. احمرت قفاه. نزع غليونه باليسرى وصفعها باليمنى. ضحكت نيكول ولعقت

شفتيها كغراب جائع. أعاد الغليون إلى فكه وتشاغل بنفث الدخان في خيوط طويلة. التقطت لنا صورة. كانت مارتين تتكئ على كتفي. فرانسوا يشعل غليونه ونيكول تصبغ شفتيها، ومشينا نقترب من شارع ناصية البحر.

- إغرم شاهدت مولد كاتب كبير، هو مونترلان.

- وما علاقة إغرم.. ؟؟

تعطرت مارتين. رفضت أنا بإشارة من رأسي.

- امرأة، نعم، هناك بطلة بربرية أعطته الشيء الكثير. نساؤكم، كريمات وقرويات من الأرض.. صفعتني جملة : (قرويات من الأرض). ضحكت بصوت ساخر.

- يظهر أنك لا تعرف عن المرأة المغربية إلا وجه جدتها. صحيح، إن جدتها كانت كريمة..

- والمرأة المعاصرة.. ؟؟

- لا تعرف شيئا عن نفسها..

- المعرفة.. ؟؟

- وبماذا غزوتمونا أيها الغربيون ؟؟. بيقظتكم على بعض قوانين المادة. اكتشفتم بأن السيطرة على المادة تؤدي حتما إلى الاستعباد، فبدأتم تغيرون اتجاهكم نحو الإنسان.. اسرعوا.. اسرعوا وإلا حطمتم المادة..

رميت الجريدة وأشعلت سيجارة. نيكول تصبغ شفتيها تعلقت بذراعي مارتين وابتسمت.

- ما هي الأخبار.. ؟؟

- الزيف والتمثيل..

- ميكروب الثرثرة والنعوت..

- السيرك..

العمارة الكبيرة تطل مغلفة بالظلمة والضباب. شارع ناصية البحر، بدأ يرتفع قليلا على سطح البحر. الهدير البشري والدمدمة تعصر الرأس والأذنين. أدخلت مارتين أصابعها الباردة في يدي. نظرة حالمة وشفتها جائعة. برأسي الحمى. البحر البشري يتموج. تتعانق خطواتها في وقعها. بذراعي باقة ورد على شكل تمثال إغريقي لربة الحسن :

فينوس. الريح باردة، تهب قارسة وتدفع أجنحة الضباب. سعلت نيكول. ضحك فرانسوا. ابتسمت نيكول عن أسنان بغلة. على رأس شارع ناصية البحر، يقف تمثال الشابة - العجوز تخرج منه شابة شبه عارية تلبس ربع بلودجين، قميص نصف كم والخمار الشفاف. تعزف الغيطة (المزمار)، فيسقط العباد على الأسفلت. تبكي الغيطة ويئن الطبل. يستيقظ الرجل البربري. يغرق شارع ناصية البحر في حلقات الركل والعض وأكل اللحم البشري. العيون جاحظة، تبصر إلى ربها خاشعة ومتواضعة. تدور الفتاة - العجوز عليهم بأكواب شراب الحلوف وأباريق الغيبوبة. إشارة من يدها. يرفع الضباب. تمشط الفتاة العجوز شعرها. يحمر الفضاء وتنزل الدابة ويقام العرس، التمثال الرخامي على ذراعي يغرق في أحلام بحر كورانث. ترقص الفتاة - العجوز. يتموج البحر البشري، يتراكب، يدخل في صفوف طويلة. الفوانيس تصبغ الوجوه بصفرة الموت. الأفق محمر الجفن والأجساد تدخل في

الأجساد، تنزل إلى المراحيض، تغرق في القواديس. الفتاة العجوز ترقص. يموت العباد من الرقص، يمسحون الإسفلت بمؤخراتهم والمشوار الطويل، إشارة من يدها. يرفعون أرجلهم، ليدخلوها في أفواههم. الغيطة تبكي والطبل يئن. ترمي الفتاة – العجوز نصف قميصها للأفق ليحترق. يمشي العباد على رؤوسهم. يسيل الدم. ينهقون وشظايا اللحم البشري تمزقها الأسنان. تنزل المزبلة إلى تحت. ترقص الفتاة – العجوز. الغيطة تبكي والطبل يئن. إشارة من يدها. يتبول العباد علىَ أيديهم، يمسحون الوجوه ويشربون، ويمزقون الأثواب والمؤخرات. ترقص الفتاة – العجوز، ترضع حلمة صدرها. يمزقون بطونهم، تنزل الدابة على عرشها. تبكي الغيطة ويئن الطبل. ترمي الفتاة العجوز سروالها. تدخل الأجساد في الأجساد وتكبر المزبلة. إشارة من يدها. يغرقون في المزبلة. إشارة من يدها. يأكلون أمعاءهم والأحذية. يسيل الدم وخيوط المزبلة. تصرخ الغيطة. يغرقون في القذارة. يسكت الطبل. يسافرون في بحر من

الغيبوبة. إشارة من يدها وينزل السراب. تذوب جماهير الدواب في السعادة. تنزل الدابة على عرشها ويكون الوصال. شارع ناصية البحر أصبح كنيسة وماخوراً.

الكاشفات توقفت أضواؤها على واجهة (كوباكابانا). جرتني مارتين من يدي. دخلنا إلى الحانة. في الجو رائحة الإصطبل والمزبلة. تمثال رخامي يسبقني في الزمن والمكان. الحاجز الخشبي نقطة جمارك. الأجساد، عارية، ترقص على نعيق الدجوبكس. الدخان والعرق والبول. طلبت بيرتين. اتكأت مارتين على ضلع النافذة. توقفت الأجساد، سقطوا جسدا أمام قدميها. مسحوا الأرض ونهقوا بأصوات الحمير. ابتسمت مارتين وقرعنا الزجاجتين. مسحوا الأرض ونهقوا. من النافذة تسافر نظراتي إلى الكازينو القديم. عووا ونبحوا. تحت السلم الخشبي، الأجساد الشابة في ضياع وتفريخ. عزف الدجوبكس. دخلوا في جوقة الرقص، عضوا بعضهم وتبولوا على الجذران.

- إلى الكشك يا مرسي.. ؟؟

- نعم، يا مارتين..

خطواتنا متعانقة. هجم الصخب وقرع البحر البشري. العين تعشق السكينة والقلب يتألم من هذه الوحدة التي تنزل علي كقفص من زجاج. من وراء النافذة، كنت، أبحث عن رفيقتي الصغيرة مدموازيل سوزي، حارسة الشاطئ والبحر ربما، هي، الآن، جائعة وبلا دفء ولا حنان.. ؟؟. أنا مثلك، صديقتي، غريب المصير في هذه الأرض، أرض الأشواك ولا زهرة تؤنس حبة العين. يد التمثال الرخامي في يدي، تبتسم فينوس وأغرق تحت عمامة الضباب. أتذكر يا مرسي.. ؟؟ عندما قفزت مدموازيل سوزي من فوق السقف القصبي. كنت متعبا وحزينا قد سئمت حياتك. خاف الزبناء وصرخت النساء. كان البحر يثرثر مع الشاطئ والبطون والمؤخرات. صرخت النساء، تكسرت الكراسي وسقطت الموائد. كنت وحيدا تعصر الدماغ في مقالة صحفية (الحب والإنسان). أنت

متعب قد سئمت حياتك. وقفت سوزي. مكشرة، غاضبة، على وجه مائدتك. كنت متعبا قد سئمت حياتك. أقعت على المائدة ومسحت بأصبعها كأسك. ابتسمت أنت. ضمتك مدموازيل سوزي وقبلتك. لعابها بفمك. كنت متعبا. وهي تضحك. تفتح فمها واسعا، تصرخ وتقول كلاما في لغة لا تعرفها الدواب البشرية. عينها غاضبة وأسنانها تضحك. ستهرب الحافلة. المساء ينحدر على شارع ناصية البحر. الشمس تغرق في البحر. تنتحر كل مساء وترش بحمرة دمها الفيلات الأنيقة والدور والأكشاك المزدحمة تحت الضباب. كنت متعبا وحزينا. هي على المائدة تلعب بالزجاجة والكأس والقلم. ستهرب الحافلة. يصرخ الزبناء وتضحك هي. اقترب منها زواق فرفضت سوزي. فر عبده خوفا منها. ستهرب الحافلة. تقدم المستر الهاشمي وكلمها كلاما اتفقا عليه في سابق الأزمان، قبل بدء البدء. وأحسست بالنفي. سوزي تنظر إليه، تصرخ ثم تضحك في سعادة وتقول له كلاما يترجمه هو

في حركات. وأحسست بالنفي. فرت الحافلة تحفر خطا طويلا على رمال المشوار. انتحبت الحافلة ثم أطلقت عمامة الدخان الأسود من مؤخرتها.

- هل تقضي الليل معنا.. ؟؟

- ذهبت الحافلة..

- ستقضي الليل معنا. إن سوزي تحبك.

- ذكية، وطيبة، سوزي.

- كان علينا أن نستضيفك لأنك زبون هادئ..

- أنا ضيف سوزي.

- ذكرتنا سوزي بواجبنا.

مشيت في شارع ناصية البحر وسوزي تتبعني. رفيقة جديدة تحمل وردة حب كبيرة، تقفز، تصرخ وتكلمني بلغة قديمة لا أفهمها. شعرت بأنك ضيف على هذه الحضارة. الشمس تغرق، هي الأخرى في البحر، تنتحر كل مساء. ينزل الضباب على ناصية البحر بألف سر من أسرار المساء. جلست على جدار الكازينو المتهدم. البحر منديل أزرق.

أقعت هي على الجدار المتهدم. أشعلت وهي تسجل كل حركة أقوم بها. يرتفع الضباب وثرثرة البحر سكتت قليلا. أطلقت دخانا من بين شفتيك. ضحكت سوزي ونامت على ظهرها وهي.. تنظر إليك بحب. تبعكما زواق بآلة تصوير قديمة. التقطت لنا صورة. كانت رفقة قديمة ووردة حب. ربما. هي، الآن، تصرخ في الغاب المظلم، بعدما عطل الإنسان قواها الدفاعية بتربية فاسدة.

كانت رفقة قديمة ووردة حب.

– مرسي.. مرسي..

ابتسمت مارتين وهي تهزني من ذراعي. توقفت كصنم ثم عدت من الزمن. أغرقتني فينوس في بحيرة عينيها.

– مرسي، أين كنت.. ؟؟

– في الزمن.

– أي زمن ؟؟

– زمننا يا بحيرة لوزان..

شارع ناصية البحر يصعد قليلا. ابتسمت

مارتين وتثاقلت على ذراعي. صعد الشارع ومال إلى الأكشاك الخشبية. الطريق تنام تحت ستر الضباب، تتلوى كأفعى عمياء. هبت نسمة الأحراش دسمة بأريج الأزهار و(الرتم) والكاليبتوس.

توقفت، لسان وتر سلطان البحر يثرثر بأغنية قديمة..

شوف النجمة منين طَلَّتْ..
كيف وحيدة إلا تْسَلَّتْ..
ومشات تْبَاتْ..

هي على ذراعي طفلة لاهية. تسائلني عن سر الكلمات. أنزع الغطاء عن أغنية صديقي سلطان البحر. هي على ذراعي طفلة لاهية تقطف الورد في ندى الصباح. سكتت وأغرقتني في بحيرة عينيها. رمت خصلات شعرها في حركة جميلة. وشعرت أن مارتين تأكل. في صمتها، كلمات الأغنية. تنهدت وتثاقلت على ذراعي.

– في أوربا أعمتنا المادة، يا مرسي..

– الاستعباد..

- لكن حضارتنا بنيت على العقل.. ؟؟

- لنترك حضارة العقل، ولنعش حضارة القلب..

- شيطان لذيذ..

الفوانيس الناعسة تبكي بقطرات الضباب واختفت الفيلات. خطواتنا توقع نغم مسافر متعب من الرحلات واختراق الآفاق. أصبحت تتوسد صدري، باقة ورد وخزامى وياسمين. غلفنا الضباب. ألقمتها سيجارتي ودخنا نحن الإثنين من فم واحد. لعابها بفمي. ألقمتها السيجارة. الطريق تفتح صدرها والعسس وبعض القطط. باقة ورد على صدري. جسد الكشك المرقم برأس الدب الأسود، يخرج من الظلمة والضباب. ألقمتها سيجارتي. الباب غير موصد. لعابها بفمي. دخلنا وأشعلت مارتين فتيلة المصباح. ضحكت مارتين. كأن العاصفة قد مرت، الأجساد تتداخل داخل لوحة لبيكاسو. أغلقت الباب ودخلت في دفء الفراش. أشعلت مارتين سيجارتين. مرت بين السيقان والأرجل والرؤوس.

المصباح يلعب بظل جسدها الرخامي. تمثال من فلورنسا، ها هنا، بشارع ناصية البحر، بالكشك المرقم برأس الدب الأسود. خطواتها رشيقة كراقصة في معبد بوسيدون. ملأت كأسين ودخلت في الفراش وهي تضحك في سعادة.

– كأني بك فينوس..

– أنا أثينا..

– ماذا.. ؟؟

– أنا أثينا..

– كيف.. ؟؟

– انظر..

وضممت جسد إلهة. في الخارج يد غاضبة تطرق الباب. قرعنا كأسينا وغرقت في الدفء. شربت كأسي، دخنت سيجارتي. المصباح يلعب بالظلال. تستغيث زبيدة من العطش، تطرق الباب وتبكي. شربت كأسي. ضحكت مارتين في رقرقة موسيقية. قرعنا الكأسين. يد غاضبة تطرق الباب. خبت عين المصباح وتثاقلت الظلال تهجم على

الزوايا. أشرقت أنجم خضر من عين أثينا، فغرقت في الدفء. طاردت عين نجمة بيضاء تجر محرائها، ترسم خطا بعيدا في دائرة السماء المحمرة.

- شيطان لذيذ..

مزقت الغلاف ودخلت في الزمن.

- لذيذ..

طيري يا أشرعتي، هذه رياح طيعة، فإلى بحر كورانث..

- أوووه ه..

كانت رفقة قديمة ووردة حب.

شاطئ مولاي بوسلهام

القنيطرة

الأعمال المنشورة

عيون تحت الليل

مجموعة قصص

اتحاد الكتاب العرب

سورية 1978

طيور الماء

رواية

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان

ليبيا 1984

الغربان

مجموعة قصص

دار البوكيلي للطباعة والنشر والتوزيع

القنيطرة 1995

15 درهما